هي... وهي!

أولجت المفتاح في باب شقتها.. اندفعت إلى الداخل كالهاربة.. دفعت الباب بقدمها فانغلق.. ارتكنت على الحائط وهي تلهث.. كأنما كانت تعدو.. وقد أوشكت على البكاء، وفمها ينفث حريقًا.. استطاعت أن تلتقط أنفاسها.. خطت في إعياء.. رمت كراسات تحضيرها على منضدة صغيرة بالصالة.. وقفت.. قطع الأثاث ترنو إليها.. تعانقها في شوق.. وتتأملها في تأثر.. بين الجدران تحس بكيانها.. وآدميتها.. جلست.. تتنفس في أمان.. كل شيء صامت.. هادئ.. لا يضيق بدمامتها.. وليس هناك مَن يؤذي مشاعرها بنظرة ساخرة.. أو يلدغها بكلمة قاسية.. الجدران أكثر رحابة.. عالم يأنس بها، ويجدد ميثاق الحب معها..

اتجهتْ إليها.. فهي الوحيدة التي تبقت لها.. تنصت إليها دون تعليق.. لا تتململ أو تتألم.. لا تتقزز أو تنفر.. لا تقاطعها.. بل تتسمع نجواها ورغيها.. وتتأمل شجونها في هدوء.. إلا أنها تبغضها.. فدائمًا تطلعها على الحقيقة.. ويا لها من حقيقة!.. هي الوحيدة التي تتعرى أمامها.. تعرف أسرارها، وتقرأ مكنونها.. وتعكس ما يتردد في أعماقها.. جعلت تتفرس فيها.. فم واسع وأنف مفلطح يأكل وجهها.. عينان ضيقتان باكيتان، وجبهة عالية،

وفكّان عريضان.. و... و.. يا لها من صورة! هي شغلها الشاغل.. وهي مصدر خوفها بالنهار، ومبعث همها بالليل.. تعهدها بألوان الزينة.. ولا فائدة.. كلها زائفة.. أو كأن لها وظيفة أخرى غير التزين وإضافة الجمال..

ها هي تتأمل جسدها.. الصدر متوثب في ثورة.. والخصر نحيل.. والقد ميسان.. والساقان ممتلئتان.. والردفان ساكنان في قنوط.. أنوثة فياضة طاغية.. متعطلة متعطشة.. ضربت الأرض بقدمها.. عادت تنظر إليها.. سرت الرعدة في جسدها.. لقد بهت لونها، وكلحت بشرتها.. ولم تفلح الدهانات في إخفاء شحوبها.. وكيف لا يشحب لونها، ولا ترتعد فرائصها والدمامة تطاردها وتسقيها الهوان أنى تكون.. سهمت بينما تجمدت نظرتها على لا شيء.. امتدت أصابعها تعبث في أزرار البلوزة فتحتها.. بان القميص الداخلي.. أحمر ناريًا.. حانت منها التفاتة إلى النافذة المفتوحة. خفّت إليها وأغلقتها.. عادت إلى جمهورها الوحيد.. البغيض.. تتفحص بعين الخبير.. أو بعين رجل.. تأوهت.. ارتعشت.. ابتسمت في خفر.. عاد قلبها يدق أشد عنفًا.. أصاخت السمع.. خالت طرقات خفيفة على الباب.. إنه هو.. لقد أثار كوامنها من النافذة المواجهة.. وقد وقفت على رغبته.. وشت بها عيناه عندما التقت به مصادفة.. وها هو قد أتى.. الوحدة كئيبة.. موحشة.. مفزعة.. سألتها أن تفتح..

رجعت بذاكرتها.. منذ سنوات، جاء تعيينها بمدرسة بنات.. كان منتهى أملها أن تظفر برجل.. فقد سئمت الوحدة بعد أن رحل الجميع عنها.. أبواها إلى العالم الآخر.. وإخوتها كل إلى عشه.. إلا هي.. كانت أيامها تدرس بالجامعة.. وقد عولت التأخير على ذلك.. رغم ارتياب أحاسيسها.. غدًا تنتهي دراستها.. لتمتد إليها الأيادي من كل صوب وكل حدب.. ستنتقي مَن يأسر قلبها.. ويأخذ لبها..

- سأنتقي أكثرهم وسامة ورجولة.. وأوفرهم حنانًا.. ويكون لي الأم.. والأب.. والأهل.. والخلان..

كم فرحت حين صادفت الكثير من الزملاء خارج القفص الذهبي.. جالب السعادة.. منت نفسها بدنو الأمل.. انفردت بهذا مرة.. وذاك أخرى.. بهم جميعًا.. كررت وكررت.. فشلت.. جعلت تحدثها بلا كلام.. تتأملها.. جمعت صور زميلاتها.. فردتهن جميعهن أمامها.. وضعت صورتها بينهن.. سهرت الليالي تقارن.. شتان.. المقارنة صعبة.. صعبة.. ولكنها تتفوق عليهن ثقافة ولباقة وعلمًا.. وذكاء.. ولا يجدن حرجًا في الاعتراف بذلك.. والرجال أيضًا.. وتبكي في لوعة.. الجميع يعاملنها كزميلة مثقفة ومتمكنة.. ويتقرَّبون إليها للفائدة العقلية والعلمية.. اقتصرت الأحاديث حول الدراسة ومتعلقاتها.. لم تتطرق بالمرة حول الحب والقلب.. وإن عرجت إليه.. تنتهز أول فرصة «للزوغان»..

احتقرت الكتب والمراجع.. هجرتها فعلَتْها الأتربة، وكساها الجمود.. طرحت كل ذلك جانبًا.. لتلجأ إلى أنواع الدهانات والصبغات.. جعلت تهرول خلف أجودها وأحدثها.. وآخر صيحات «الموضات» من الملابس والأزياء.. تبدل وتغير.. تبتكر وتخترع.. وأيضًا بلا جدوى.. تعبت..

- ملعون هذا الجنس الخشن.. لقد عموا أجمعين..

وكأن ما تبديه وما تقدم عليه يباعد بينها وبينهم.. ويضيف إلى الهوة عمقًا وسحقًا.. مُنِيتْ كل مساعيها بالخيبة.. انهزمت أنوثتها.. وإنها لكارثة.. وعادت تبث لواعجها وعذاب مصيبتها.. دومًا تلجأ إليها وما زالت تبغضها..

طوحت بها الذكريات حيث أيام طفولتها.. ويا لها من ذكريات!.. كانت النساء تعلقن بلا حرج على أسباب دمامتها.. لم يرعين مشاعرها، وأثرت التعليقات في نفسها وفكرها.. ليس إلا لأنها طفلة لا تعي شيئًا.. وكأن الأطفال بلا عقول.. وبلا أحاسيس.. وأمها.. لم تسكت مرة عن الذود عنها.. لم تنس ما تصنعه الكلمات في ملامحها الطيبة.. وما تعانيه لتجد مخرجًا لورطتها.. وحديثها وفلسفتها:

- الجمال الحقيقي هو جمال الطباع.. كما أن ابنتي متفوقة في دراستها.. إنها من الأوائل.. والأيام كفيلة

بإثبات جمال الروح.. إنه يأخذ باللب ويبعث النشوة ويستهين بأزمات الحياة.. و..

وتعود الأم لتفحص وجه زائرتها.. والثقة والجذل يملآن صدرها.. لقد استطاعت أن تستخلص مبررًا لكل نظرة اشمئزاز.. وأن تصدَّ كل تعليق مؤلم يرشق ابنتها.. وبقدر إيمان الأم بما تقول.. إلا أنها كانت تتمنى في نفسها.. لو ترفل ابنتها في ثوب فضفاض من الجمال والفتنة..

ما زالت تسمع صوت أمها برتابته الحنون ورعشاته المحببة.. كانت الكلمات تخرج باكية.. يحوطها المرارة والألم.. تدمي لها القلوب.. وكانت مشكلة الأم التي تنمو وتتجسد ولا تملك إلا الدفاع بالكلام..

كانت تلتقط تلك العبارات بأذن غير واعية.. إلا أنها كانت تتسرب إلى عقلها الباطن.. وما تلبث أن تتركز وتثقل.. وتسكن في القرار..

- ليتني ما تفوقت.. مقابل مسحة من الجمال..

وكانت تلك التعليقات بمثابة النفخ في نيران حماسها.. لتتقد وتستعر جذوتها.. ولتنكبَّ على كتبها تنهل منها بنهم.. علَّها تكون بمثابة التعويض بما تملكه لما لا تملكه.. إذا كان للعلم والعقل والروح جمال كما تردد أمها..

حانت منها التفاتة إلى صورة أمها.. وجهت إليها نظرات الحب واللهفة واللوعة.. بكت وانتحبت.. ظلت هكذا وقتًا..

- لعنة الله على مَن تشدقن بصنع الله في خلقي.. لقد ألحدن حين عِبْنَ عليه.. وحين عِبْنَ عليَّ.. فما جنايتي؟!.. وما بيدي إلا أن أطلب لهن الغفران.. فقد رغون بلا قصد.. ذبحنني ولم يتخيلن ما سيكون..

لقد هجر الزملاء شبكتها.. ضاقت بهم ذرعًا.. لم تجد بدًّا من التطلع إلى خارج نطاق العمل.. وأيضًا، هناك مَن يقدر عقلها ولبقاتها.. بعيدًا عن هدفها.. وزِيدَ بمن يلقي على مسمعها ما يؤذي وما يجرح.. ومن يريدها لتحقيق رغبة..

- لقد أصيبوا بالتخلف والغباء.. فكلٌّ زائل.. والروح خالدة..

إن أهدافهم جميعًا زهيدة.. رخيصة.. مبتورة.. دست أحزانها في أعماقها.. أصابها الإحباط.. والقنوط.. لقد تساقطت القيم والمعاني السامية.. انتحر الطموح.. تعفنت الآمال وعطبت.. وعبقت الجو برائحة عفنة.. كريهة.. خانقة.. كرهت الرجال جميعًا.. وامتدت كراهيتها إلى بنات جنسها.. وباتت تصب جامَّ غضبها فوق رؤوس مَن تحت إمرتها من الطالبات.. كرهنها.. وعلى الأخص الجميلات.. وكان ما يقلب حالها أن تلمح «دبلة خطوبة» في إصبع إحداهن.. تبرق الدبلة فتستشعر الإغاظة والشماتة.. تنتفض وتقرض أنيابها وتنقلب سحنتها.. وكلهن يعرفن السبب.. وتسأل من بين أسنانها:

- «دبلة خطوبة» هذه؟

وبحياء يشوبه الخوف ترد الطالبة بالإيجاب..

- منذ متى؟

- منذ أول أمس.

- ألهذا تغيبتِ اليومين الماضيين؟

- أجل..

- ووظيفة العريس؟

- طبيب.. طبيب أسنان.

وتبتلع أبلة «سلوى» لعابها الممرور.. ويرتعش صوتها وتستطرد:

- ولكنك ما زلت صغيرة.. و.. الزواج مسؤولية خطيرة..

- سيكون الزفاف بعد دخولي الجامعة..

- ترتشف«الأبلة» ريقها قائلة في جرأة:

- هل يحبك؟..

وتخفي الفتاة محياها خجلًا.. ولا ترد عليها لتضيف بوقاحة:

- و.. وكيف أتى؟..

وتتلاقى أعين الطالبات.. تنظر الزميلة إليهن مستنجدة.. وتهز رأسها ولا تدري بم ترد..

وكم تكرر ذلك الموقف وما يتبعه من تحقيق جريء.. بل وأكثر.. وكانت تقف منهن مواقف معادية وترى في كل منهن غريمتها.. وكم كانت تغالط نفسها.. وتبث سموم أفكارها.. بأن الزواج عنصر على هامش الحياة..

وتصفه بأنه عبودية وأسر.. وقيد لا يتحطم.. بل تزداد صلابته بمرور الأيام.. وأن القوي مَن يدوس عليه.. وينأى بنفسه عنه.. وما تلبث أن تتسع حدقتا عينيها ناظرة في الفضاء.. لتهتف وكأنها على خشبة مسرح:

- حري بالمرء أن يعيش طائرًا.. يلثم الأزهار من كل الحدائق والجنان.. يقفز هنا ويحلق هناك.. يروح ويغدو في حرية.. ينطلق في أي اتجاه وعلى أي نحو كما يحلو له.. ويعيش في عشه آمنًا يستشعر الحبور بنسيم الحرية الصافي..

ويمتد النقاش والفتيات قد ازددن جرأة على مدى الأحاديث.. وتعدم مقاومة الحقيقة.. عندئذ تتذكر سلطانها.. فيرتفع صوتها بلاذع السباب والصفات.. ولا تتورع أن تبصق على وجوههن وتصفع خدودهن.. وتبدو لهن إنسانة مخبولة غريبة.. لا تطاق..

- الويل لمن تقع في براثني.. و.. وسحقًا لأولئك المتكبرات المغرورات..

وبين الجدران تبكي وتبكي.. وتنظر إليها.. وتبدو وقد ازدادت كآبة.. وقد دبت الشيخوخة في ملامحها.. وبدا السعار في عينيها وأسنانها.

وما زالت تتوهم أنها تسمع النقرات الخافتة على الباب والبرد يسري في أعضائها.. ومن بين رجفتها تكرر لها السؤال.. هل تفتح الباب؟..

* * *